الذكرى والتاريخ

طيبة تستقبل فرعون مصر

للكاتب الفرنسي تيوفيل جوتييه

في كتابه قصة المومياء

[إلى جانب المصريين نحن حقاً برابرة]

تيوفيل جوتييه

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

أنى[1]، تلك المدينة الضخمة الواسعة ، لم تعد تضم بين أحضانها إلا المرضى والعجزة والمسنين الذين لم يعودوا بعد قادرين على الحركة ، والعبيد المكلفين بحراسة المنازل ؛ ففي الشوارع والميادين ، وطرق أبي الهول، وأقواس المعابد والأرصفة، يجرى سيل من الناس متجه إلى النيل ؛ ويزخر هذا الجمع الحاشد اختلاف عجيب ، فالمصريون يكونون القسم الأعظم ، ويعرفون بسمات وجوههم النقية ، وبقامتهم الرشيقة العالية ، وبثيابهم من الكتان الدقيق ، ومناطقهم المثناة باعتناء ، وبعضهم يلف رأسه بنسيج ذي خطوط زرق أو خضر ، ووسطهم مشدود بسراويل ضيقة ، وظهرهم عار له لون الصلصال المحروق

في هذا الجمهور الوطني تظهر نماذج مختلفة لأجناس أجنبية : فزنوج أعالي النيل سود كالحة من البازلت ، أذرعتهم مطوقة بحلقات كبيرة من العاج ، وتتأرجح في آذانهم حلى بربرية ؛ والأثيوبيون ذوو الألوان البرنزية ، والسحنات النافرة ، قلقون برغمهم في هذه الحضارة كأنهم حيوانات متوحشة في وضح النهار ؛ والأسيويون يعرفون بلونهم الأصفر الرائق ، وعيونهم الزرق ، ولحاهم المجعدة على شكل حلزوني ، ويعصبون رءوسهم بقلانس مثبتة بعصائب ، ويلبسون أردية مطرزة ذات أهداب ؛ أما اليونانيون فيرتدون جلود الحيوانات يعلقونها بعواتقهم ، ويتركون أذرعتهم وسيقانهم الموشومة وشماً غريباً ، ويحملون ريش طير فوق رءوسهم التي يتدلى منها ضفيرتان ، تصيران واحدة تنظم على هيئة قرط على الصدغ

في وسط هذا الزحام يمشي الرهبان عليهم الهيبة والوقار ، رءوسهم محلوقة ، ويلفون أجسامهم بجلد النمر ، بحيث يبدو فم الحيوان كأنه مشبك حزام ، وفي أقدامهم أحذيتهم ، وبأيديهم عصى من شجر السنط قد كتب عليها بالهيروغليفية ؛ ويسير الجند إلى جنوبهم خناجرهم ذوات المسامير الفضية ، وعلى ظهورهم تروسهم ، وفي أيديهم فئوسهم ؛ والشخصيات المبجلة يحلى صدورها أوسمة التشريف ، ويحييها العبيد بالانحناء ، ووضع الأيدي إلى أسفل بالقرب من الأرض ؛ وتمشي بجانب الحيطان في هيئة متواضعة حزينة نسوة فقيرات ، يكدن يكن عاريات ، ينحنين تحت ثقل أبنائهن ، المتدلين من أعناقهن في خرق بالية أو قفف من الحصير ، بينما تختال فتيات جميلات يصحبهن ثلاث توابع أو أربع — في أثوابهن الطويلة الشفافة ، التي تنعقد عند أسفل صدورهن بوشاح أطرافه مرسلة ، ويضيء فوقهن اللؤلؤ والذهب ، ويفوح منهن رائحة الأزهار والعطور

وبين الرجالة تمضي الهوادج يحملها الأثيوبيون بخطى سريعة منتظمة ، والعجلات الخفيفة المسرحية بحصن يزينها جلال ذات أهداب ، ويجمل رأسها الريش ؛ أما العربات التي تحمل أسراً ويجرها الثيران ، فتمشي باتئاد ، وتجد طريقها بعسر بين الجمهور الذي لا يأبه بأن يداس ؛ وغالباً ما اضطر السائقون إلى أن يضربوا بسياطهم المتمهلين والذين لا يخلون الطريق

هذا وفوق النهر حركة غير عادية ، فعلى طول المدينة قد غطى النيل برغم سعته ، ولم يعد في الوسع رؤية مائه بقوارب من كل صنف ، فمن زوارق ذات حيزوم وسكان عاليين ، إلى أخرى ذات ألوان وتذهيب ، فكلها كان مستخدماً ، ولم يستنكف حتى من ركوب المراكب المعدة لنقل البهائم وحمل الفواكه ، ولا الأرمات المصنوعة من خشب الخيزران ، والتي كانت معدة في العادة لحمل أوعية الصلصال

ليس من السهل عبور النهر من جانب إلى جانب ، وسط جمهور يربى على ألف ألف نسمة ، بل يجب لذلك كل مهارة نوتية طيبة ونشاطهم .

ماء النيل تضربه المجاذيف وتشقه السكانات ، فيرغى ويزبد كأنه بحر ، ويكون آلاف الدوامات التي تضعف قوة التيار

والزوارق في مجموعها مختلفة ومبهجة ، فبعضها ينتهي كل من طرفيه بزهرة كبيرة من أزهار اللوتس تنحنى إلى الداخل ،

(١) ذلك — كما يقول الكاتب — هو الاسم المصري المدينة التي كان القدماء يدعونها طيبة ذات الأبواب المائة .

وتربط بساقها راية ، والبعض حيزومة على شكل هلال يتبع طرفاه فوق الماء ، ومنها ما يحمل فوقه نوعاً من الأبراج أو السطح يقف فوقها رؤساء النوتية ، وبعضها مكون من ثلاثة جنبات ربطت بالحبال ، ويحركها مجذاف ؛ أما المراكب المعدة لنقل الحيوانات والعربات فقد ربط بعضها إلى بعض ، ووضع بينها معبر يسمح بالصعود والنزول من غير كبير عناء ، وقد كان عددها عظيما ، وعليها تحمل الأحصنة المطهمة ، وتضرب الخيل بحوافرها الرنانة ، والثيران قلقة تنحنى إلى النهر بقامتها التي يسيل منها خيوط من اللعاب ، ولكنها تهدأ إذا لاطفها قوادها

يضبط النوتية حركات المجدفين بالتصفيق ، ويجثم اللاجئون فوق الكوثل[1] ، أو يمشون فوق سقف المركب يصدرون أوامرهم ، ويرسمون خطة السير الضرورية للانزلاق بين هذه الكثرة المربكة من الزوارق ، وبرغم الاحتراس كانت الزوارق تصطدم أحياناً

هذه الآلاف من السفن المطلي أغلبها باللون الأبيض . والمزخرفة بزينة خضراء وزرقاء وحمراء ، والمحملة بالرجال والنساء اللابسات ملابس من ألوان شتى أخفت سطح النيل تحتها في أماكن كثيرة ، وأظهرت تحت الأشعة الساطعة للشمس منظراً ساطعاً باهراً في حركته ، وكان الماء المتحرك بكل قوته يضيء ويبرق كأنه فضة خالصة ، أو شمس كسرت آلاف الأجزاء .

لقد كانت الزوارق ثقيلة بمن عليها وأبراجها مليئة بالعابرين . وفوق سطحها يجلس الرجال والنساء والأطفال متربعين ، تلك الجلسة العزيزة لدى الشعب المصري . ولدى رؤيتهم يخيل إلى المرء أنهم قضاة أو وزراء ، لولا أن منظرهم لا يدل على التأمل . وهو سمة قضاة الموت ، بل على العكس يشعر بأقصى ما يكون من السرور

في الحق أن فرعون عاد منتصراً ، يقود معه عدداً ضخماً من الأسرى ؛ فطيبة غارقة في السرور ، وشعبها قد خرج بأجمعه إلى المحبوب أمون رع رب التيجان ، مدبر المملكة الطاهرة ، القدير على كل شيء إله الشمس ، منظم شئون العالم

على الجانب الغربي للنهر ، لم يكن الازدحام أقل شدة من الشاطئ الشرقي ، وقد جاء سكان أحياء ممنون والقرى المجاورة ، وفي كل لحظة تحمل الزوارق أناساً جدوا ترسو بهم فوق الرصيف فتزيد كثافة الجمهور ، بينما العربات التي لا تعد تشق طريقها إلى ميدان العرض ، وتضيء عجلاتها كأنها شموس بين الغبار الذهبي الذي تثيره . لقد صارت طيبة في هذه اللحظة خالية ، كما لو أن فاتحاً قاد شعبها أسيراً .

وبالنظر ، مع ذلك ، جدير بأن يصور ، ففي وسط الخضرة البديعة التي ينهض فيها النخيل بتيجانه ، تبدو الألوان الزاهية للمنزلات والقصور وخيام الصيف محاطة بأشجار الجميز ، والسنت المستحية) ، وكثير من أحواض المياه يضيء في الشمس ، والدوالي تشتبك محاليقها في عرائش مقوسة ، وفي البعيد يبدو شبح قصر رمسيس بأبراجه الهائلة ، وجدرانه الضخمة ، وصواريه المذهبة المزخرفة ، ترفرف فوقها الرايات في الهواء ، وأبعد من ذلك إلى الشمال يبدو التمثالان الضخمان جالسين على عرشهما في وضع خالد لا يتأثر ، وكأنهما جبل صخري ذو شكل إنساني يقوم أمام مدخل معبد أمينوفيس ، ويبرز في لون ناصل الرمسيوم الذي يبعد قليلاً ، والمقبرة الوحيدة للكاهن الأكبر ، ولكننا من أحد الجوانب نستطيع أن نرى قصر منفتاح .

(يتبع)

أحمد أحمد بدوي
مدرس بحلوان الثانوية للبنين

(١) مؤخر السفينة

إعلان

تعلن مصلحة الأموال المقررة فقد دفتر القسائم البيضاء رقم ٧ (أموال مقررة) من رقم ٦٧٣٠٠١ إلى ٦٧٣١٠٠ مجموعة رقم ١

وقد اعتبرت المصلحة هذه القسائم لاغية ، فكل من حاول استعمالها يعرض نفسه للمحاكمة الجنائية ٣٣٧